مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة

Humanities and Educational Sciences Journal



ISSN: 2709-0302 (online)

ISSN: 2617-5908 (print)

من أخبار القُضاة في العصر العباسي الراوي رُؤية سردية(*)

د/ نرجس بنت عبد الغفار بن سعيد بازهير

أستاذ اللغة العربية "أدب ونقد" المشارك

جامعة تبوك – السعودية

nbazuhair@ut.edu.sa

ORCID: 0000-0001-8796-8257

*) تاريخ تسليم البحث 5/2/2024 تاريخ قبوله للنشر 6/3/2024

*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

من أخبار القُضاة في العصر العباسي الراوي رُؤية سردية

د/ نرجس بنت عبد الغفار بن سعيد بازهير
أستاذ اللغة العربية "أدب ونقد" المشارك
جامعة تبوك – السعودية

الملخص

الراوي عنصر حتمي من عناصر السرد؛ ففي كل حكاية، مهما قَصُرَت، متكلم يروي الحكاية، ويدعو المستمع إلى سماعها بالشكل الذي يرويها به، هذا المتكلم هو الراوي أو السارد، ولا حكاية بلا راوٍ يرويها، وهذه الحتمية تنطلق منها أهمية الراوي، ولذلك قامت الكثير من الدراسات بالاهتمام بالراوي تعريفًا وبيانًا لأنواعه ولوظائفه في البنية السردية.

ويقدّم البحث دراسة للراوي في المرويات التراثية من خلال طائفة من أخبار القضاة التي تناولتها مطولات العصر العباسي، واعتمد البحث على طائفة من كتب الأدب التي أنتجتها قرائح أدباء العصر العباسي: البيان والتبيين والحيوان للجاحظ، والأغاني للأصفهاني، والكامل للمبرد والتذكرة الحمدونية لابن حمدون، ومفيد العلوم ومبيد الهموم لأبي بكر الخوارزمي، ونشوار المحاضرة للتنوخي. وقد اهتم البحث بدراسة الراوي دراسة نظرية مُتبعة بدراسة عملية من خلال التطبيق على أخبار القضاة.

يُقسم البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. حيث تتناول المقدمة أهمية الدراسة والدراسات السابقة، وتشمل منهج البحث ومكوناته؛ المبحث الأول يبحث مفهوم الراوي لغةً واصطلاحًا، والمبحث الثاني يناقش أهم وظائف الراوي، والمبحث الثالث يستعرض أنواع الرُّواة، والخاتمة تُسلّط الضوء على أبرز النتائج المستخلصة من البحث.

الكلمات المفتاحية: القضاة، الراوي المؤلف، الراوي الشاهد، الوظيفة السردية، الوظيفة التفسيرية.



From the Chronicles of Judges in the Abbasid Era: A Narrative Perspective

Dr. Nargees Abdulghaffar Saeed Bazhair
Associate Professor of Arabic Language, Literature and Criticism
Tabuk university – KSA

Abstract

The narrator is an essential element of narration; in every story, no matter how short, there is a speaker who narrates the story, inviting the listener to hear it as it is told. This speaker is the narrator, and there is no story without a narrator to tell it. The importance of the narrator stems from this inevitability, and thus, many studies have focused on defining the narrator and explaining its types and functions within the narrative structure.

The research presents a study of the narrator in traditional narratives through a collection of tales about judges handled in the lengthy texts of the Abbasid era. The research relied on a selection of literary books produced by the creative minds of the Abbasid era: " Kitab Al-Bayān wa Al-Tabyīn " and "Kitab Al-Hayawān " by Al-Jāḥiẓ, "Al-Aghani" by Al-Isfahani, "Al-Kamil" by Al-Mubarrad, "Al-Tadhkirah al-Hamduniyah " by Ibn Hamdun, "Mufid al-'Uloom wa Mubid al-Humoom" by Abu Bakr al-Khwarizmi, and "Nishwar al-Muhadara" by Al-Tanukhi. The study focuses on a theoretical examination of the narrator followed by a practical study through application to the tales of judges.

The research is divided into an introduction, three main sections, and a conclusion. The introduction discusses the importance of the study, previous studies, and includes the research methodology and its components; the first section explores the concept of the narrator, both linguistically and terminologically; the second section discusses the main functions of the narrator; the third section reviews the types of narrators; the conclusion highlights the most significant findings of the research.

Keywords: judges, author-narrator, witness-narrator, narrative function, interpretative function**.**

المقدمة:

تعجُّ كتب الأدب في العصر العباسي بأخبار القُضاة، تناقلها الرُّواة عبر الأجيال، وحرص الأدباء والمفكرون في العصر العباسي على تدوينها في كتبهم حتى وصلت إلينا في عصرنا هذا، لتعطينا صورة يمكن أن تُعدّ كاملةً عن حياة هذه الفئة المهمّة من فئات المجتمع. وفي الدراسة التالية تتضح بعضٌ من معالم هذه الصورة من خلال دراسة الراوي الذي قَدّم إلينا هذه الأخبار دراسةً سرديةً باعتبار أن الراوي أحد أهم عناصر السرد.

وانتشرت أخبار القُضاة في أهم ما أنتجته قرائح الكتّاب والأدباء في العصر العباسي، من أمثال الجاحظ والمبرد وأبي هلال العسكري والتنوخي وأبي حيّان التوحيدي... وغيرهم، والدراسة تقتطف من أزهار هذه القرائح.

تكمن أهمية الدراسة في كونها تعمد إلى تقديم النصوص التراثية تقديمًا جديدًا من خلال نظرية الراوي، فتبحث في أثر الراوي ودوره في سرد الأحداث وانتقاء الأخبار والتقديم لها، والتعليق عليها بما يُلقي الضوء على سمات الراوي الخاصة التي يكتسبها من طبيعة تلك النصوص التراثية.

وهناك الكثير من الدراسات التي تناولت الراوي بالدراسة من خلال نظريات البنياويين أو الأسلوبيين، ومنها النظرية ومنها التطبيقية، ومن أمثلة النظرية: الراوي والنصّ القصصي لعبد الرحيم الكردي، الراوي الموقع والشكل ليُمنى العيد، وهما من الدراسات التي خُصّصت للراوي فقط، واهتمت بالجانب النظري في نظرية الراوي، ومن النظرية السابقة، والتي جاء الراوي جزءًا منها. المصطلح السردي لجيرالد برنس، وهو من الكتب الأمهات في نظرية السرد بشكل عام، والتي أفردت للراوي جزءًا هامًا، ومنها أيضًا مدارات سردية لليث هاشم الرواجفة، وأيضًا بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي لعبد الله إبراهيم، ومما يُؤخذ على هذه الدراسات أنها عرّبت كثيرًا من النصوص للدراسات السردية، فجاء هذا التعريب مُلْغَزًا في كثير من أجزائه، وأنها لم تعطِ نماذج كافية للتوضيح.

ومن الدراسات التي اهتمت بالجانب التطبيقي: البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة لميساء إبراهيم سليمان، وتقنيات السرد الجزائري في ضوء نظرية التلقّي: رواية الوالي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، للطاهر وطار، نموذجًا لبودومي مليكة، وأيضًا موقع الراوي وإرباكات السرد دراسة في لغة السرد في الرواية السعودية، خوفير والناصر أنموذجًا لحسن حجاب الحازمي.

وقد أفادت الدراسة من كل هذه الدراسات وغيرها الكثير في استيعاب نظرية الراوي بتعدد جوانبها، ومحاولة تقديم رؤية لهذه النظرية من خلال أخبار القضاة في العصر العباسي، وهي من النصوص التراثية التي استخدم الرواة فيها تقنياتهم الخاصة بعصرهم، والتي أوضحت الدراسة أنها غير بعيدة عن التقنيات الحديثة لنظرية الراوي.

وقامت الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي، في استخراج الأخبار وتصنيفها وتحليلها، كما حاولت الموازنة بين المنهج البنيوي والشكلي في الدراسات السردية، بما يتناسب وطبيعة الأخبار موضع الدراسة، من حيث إنها أخبار مروية لأحداث وقعت في الحقيقة، وليست نصوصًا أدبية مؤلفة.

المبحث الأول: مفهوم الراوي

الراوي في اللغة:

حامل الماء وناقله، جاء في مقاييس اللغة أنه: "الرَّي ما كان خلاف العطش، ثم يُصرف في الكلام لحامل ما يُروَى منه. فالأصل رُوِيتُ من الماء ريًّا"(١) وهو أيضًا مَن يأتي بعلم أو خبر فيرويه، كأنه أتاهم برِيّهم من ذلك(٢)، والجمع رُواة(٣)، والرّواية: النقل(٤).

والراوي في الاصطلاح:

"واحد من شخوص القصة، إلا أنه قد ينتمي إلى عالَمٍ آخر غير العالَم الذي تتحرك فيه شخصياتها، ويقوم بوظائف تختلف عن وظائفها، ويُسمح له بالحركة في زمان ومكان أكثر اتّساعًا من زمانها ومكانها"(٥).

ولقد حَظِيَ الراوي باهتمام الكُتَّاب والباحثين، فتعدّدت المفاهيم والاصطلاحات لتحديد ماهيته، فعُرف أيضًا بأنه: الواسطة بين العامل الممثّل والقارئ والمؤلّف الواقعي، فهو العون السردي الذي يعهد إليه المؤلّف الواقعي بسرد الحكاية أساسًا، ويهتدي إليه بالإجابة عن السؤال "مَن يتكلّم"، ويمكن رسم صورته من خلال ما يتركه ضرورةً من بصمات في الخطاب القصصي، ومن هذه البصمات موقعه الزمني من الأحداث التي يرويها، ودرجة علمه بها، وتشكيله الخاص، ومستواه من خارج الحكاية أو من داخلها، وعلاقته بالحكاية المرويّة(٦).

---

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة: المحقّق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، كتاب الراء، باب الراء والواو وما يَثْلُثُهُمَا (٢/٤٥٣). وراجع: الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: دار الهداية، مادة (ر و ي) (٣٨/١٩١). والمعجم الوسيط مادة (ر و ي) (ص٣٨٤).

(٢) ينظر ابن فارس: مقاييس اللغة (٢/٤٥٣).

(٣) أبو حبيب سعدي: القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة: الثانية ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، حرف الراء (ص١٥٦).

(٤) الفاروقي الحنفي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م، حرف الراء (١/٨٧٥).

(٥) ينظر: عبد الرحيم الكردي: الراوي والنصّ القصصي، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر ١٩٩٦م (ص١٧).

(٦) محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، (ص١٩٥).

ومن أمثلة ذلك:

يروي الجاحظ طائفة من الأخبار عن القاضي إياس بن معاوية، ويسرد من خلالها للمتلقّي ما يريد أن يُبرزه عن هذا القاضي، ويركّز على ما يفيد الجاحظ في تفنيد وجهة نظره حول البلاغة بين كثرة الكلام وقلّته، فيقول: "ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء والأمراء ممّن كان لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل، منهم: زيد بن صوحان. ومنهم: أبو واثلة إياس بن معاوية المزنيّ، القاضي القائف(٧)، وصاحب الزّكن(٨)، والمعروف بجودة الفراسة. ولكثرة كلامه قال له عبد الله بن شبرمة: "أنا وأنت لا نتّفق؛ أنت لا تشتهي أن تسكت وأنا لا أشتهي أن أسمع". قال أبو الحسن: قيل لإياس: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال: فتسمعون صوابًا أم خطأ؟ قالوا: لا، بل صوابًا. قال: "فالزيادة من الخير خير". لكن الجاحظ يعقّب على كلام القاضي مُفنّدًا رأيه، فيقول: "وليس كما قال، للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعتُ الحكماء يعيبونه"(٩).

المبحث الثاني: من وظائف الراوي

والمقصود هنا هذه المهام الملقاة على عاتق الراوي أو الغايات من السرد، ولا ينبغي أن يشمل النصّ السردي مُجمَل وظائف ومهام الراوي؛ لأن وظيفة واحدة يمكن أن يقوم عليها حدث سردي كامل. ويمكن تحليل مفهوم الراوي ووظائفه في أخبار القُضاة من خلال النصوص فيما يلي:

الوظيفة السردية:

يُطلِق عليها البعض الحكي أو الإخبار، ويُقصد بها: توصيل الحكاية من مُخاطِب يحاول التأثير في مُخاطَب عن طريق السرد، وينشأ عن ذلك ما يُسمّى لدى نقاد القصة بمصطلح "الخطاب السردي" أو الأسلوب الإخباري السردي القائم على التوازن بين حدثين وفاعلين وزمانَين، حدث الفعل من ناحية وحدث الإخبار عن هذا الفعل من ناحية أخرى، ثم زمان الفعل من ناحية، وزمان الإخبار عنه من ناحية أخرى، ثم فاعل الفعل من ناحية، وفاعل الإخبار عن هذا الفعل من ناحية أخرى، وقد أطلق البلاغيون القدماء على هذا النوع من الأساليب: الأسلوب الخبري، وعرّفوه بأنه يقبل الصدق والكذب لذاته، تفريقًا بينه وبين الأسلوب الإنشائي الذي لا يقبل ذلك(١٠).

---

(٧) من يُحسن معرفَة الْأَثر وتتبُّعه (ج) قافة، المعجم الوسيط، (٢/٧٦٦).

(٨) الزَّكن: الحفظ، أبو عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني (الجيم)، المحقّق: إبراهيم الإبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، (٢/٧٤).

(٩) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣هـ، (١/١٠٠).

(١٠) عبد الرحيم الكردي: الراوي والنصّ القصصي (ص٥٩، ٦٠).

والدور الأساسي الذي يمارسه الراوي يبدو في أدائه الوظيفة السردية؛ لأن الوظيفة المركزية للراوي سردية، يقوم فيها ببناء عالم القصّ من خلال التمهيد للشخصيات بأفعال القول والشعور، ورصد الانفعالات الشخصية من خلال التصوير(١١).

وقد أجمع النقّاد على أن الوظيفة السردية تتأثّر بموقع الراوي أو نوعه، إذا كان هو البطل أو المشارك في الخبر: إن العلاقة بين الراوي والشخصية التي تسرد هي علاقة اندماج، ويظهر ذلك في المستوى التركيبي في الجمل، مثل استخدام تاء الفاعل التي تدلّ على القيام بالفعل أو ضمائر المتكلم المتّصلة والمستترة، فالسارد الشخصية يروي ما حدث معه هو، فثمّة ترابط بين الحدث وراويه من خلال إنجاز المعنى اعتمادًا على تقنيات سردية قادرة على خلق حقيقة سردية في قول الحكاية ولدتها أدبية السارد وقدرته على تحويل الواقع المرجعي نفسه إلى فن أدبي تُلغَى فيه المسافة بين الراوي والشخصية(١٢).

وهذا مُتحقّق في الأخبار موضع الدراسة، وإن كان الراوي غائبًا أو مُشاهدًا، فأحسب أنه لا يُنقص موقعه هذا من مهمته في الحكي أو السرد، إلا فكرة الخيال في الخبر، وهل هو من تأليف الراوي أم نابع من الشخصية، وذلك لأن تلك المرويات لا تعتمد أساسًا على الخيال.

ومن أمثلة تأثّر الوظيفة السردية بموقع الراوي، ما روى عمر البناء البغدادي، حيث قال: "لما كانت محنة غلام الخليل ونسب الصوفية إلى الزندقة، أمر الخليفة بالقبض عليهم، فأُخِذَ فيهم أبو الحسين أحمد بن محمد المعروف بالنوري، وكان صوفيًّا متكلّمًا، فأُدخلوا على الخليفة؛ فأمر بضرب أعناقهم، فتقدّم النوريّ مُبتدرًا إلى السيّاف ليضرب عنقه، فقال له: ما دعاك إلى الابتدار إلى القتل من بين أصحابك؟ فقال: آثرت حياتهم على حياتي هذه اللحظة، فتوقّف السيّاف والحاضرون عن قتله، ورُفع أمرهم إلى الخليفة، فردّهم إلى قاضي القُضاة، وهو يومئذٍ إسماعيل بن إسحاق، فسأل النوريّ عن مسائل في العبادات من الطهارة والصلوات فأجابه، ثم قال: وبعد هذا لله عباد يسمعون بالله، وينطقون بالله، ويصدرون بالله، ويُوردون بالله، ويأكلون بالله، ويلبسون بالله، فلما سمع إسماعيل كلامه بكى بكاءً طويلًا، ثم دخل على الخليفة فقال: إن كان هؤلاء زنادقة، فليس في الأرض مُوحِّد، فأمر بتخليتهم، وسأله السلطان يومئذٍ: مِن أين تأكلون؟

قال: لسنا نعرف الأسباب التي تُستجلب بها الأرزاق، نحن قوم مُدبرون"(١٣).

فالراوي هنا مشاهد، وليس أحد أشخاص الخبر، لكنه صاحب رُؤية كلية استطاع أن يسرد الخبر سرد العليم بنقطة التغيّر في مجريات الحدث، أو قمّة الحبكة في الخبر، وهي تقدُّم هذا الصوفي بالمبادرة إلى الموت مُؤثرًا أصحابه بهذه الدقائق في الحياة على نفسه، فهذا التصرّف غيّر نظرة السيّاف والحضور، ورفع الأمر إلى الخليفة...

---

(١١) إبراهيم ميساء سليمان، السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، ط. وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١ (ص٥٦).

(١٢) إبراهيم، عبد الله، السردية العربية، (ص١٥٠).

(١٣) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ، (٢٢٣/١).

وعندما يكون الراوي مُشاركًا في الأحداث يتغيّر موقعه ويختلف سرد الخبر، كما في خبر عمر بن حبيب العدوي، حيث قال عمر بن حبيب العدوي: "كنت في وفد أهل البصرة لما قدموا على المنصور يسألونه أن يولّي عليهم قاضيًا، فبينما نحن عنده، إذ جيء برجل مُصفَّد يحمل في الحديد، فوقف بين يديه فغلّوا يديه إلى عنقه، فساء له طويلًا، ثم بُسط له نطْع وأُقعد عليه، ونحن ننظر إليه، فأمر بضرب عنقه، والرجل يحلف له، وهو يُكذِّبه، ولم يتكلّم أحد من الجمع. فقمتُ وكنتُ أَحدثهم سنًّا، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الكلام؟ فقال: قُل. قلت: يُروَى عن ابن عمك رسول الله –صلّى الله عليه وسلم– أنه قال: مَن اعتذر إليه أخوه المسلم فلم يقبل عذره، لم يرِد عليّ الحوض، وقد اعتذر إليك فاقبل عذره. فقال: يا غلام، اضرب عنقه. فقلت: إنّ أباك حدثني عن جدك عن ابن عباس قال: قال رسول الله –صلّى الله عليه وسلم–: إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ تحت العرش ليَقُم مَن كانت له عند الله يد، فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه المسلم، فقال: آلله إنّ أبي حدّثك عن جدي عن ابن عباس عن النبي –صلّى الله عليه وسلم– بهذا؟

فقلت: آلله إن أباك حدثني عن جدك عن ابن عباس عن النبي –صلّى الله عليه وسلم– بهذا. فقال أبو جعفر: صدق أبي عن جدي عن ابن عباس بهذا. يا غلام خلِّ عنه، وأمر له بجائزة، وولّاني قضاء البصرة"[١٤].

فالراوي هنا –وهو بطل الخبر– يسرد لنا سردًا خبريًّا، ويستخدم ضمير المتكلم؛ لأنه بطل الخبر، مما يضفي الترابط التركيبي على الخبر، فضلًا عن الترابط بين الحدث وراويه، فهو المؤلّف والبطل. والراوي هنا في سرده للخبر لا يقدّم السرد التمهيدي لأحداث الخبر، فلا يعطينا لمحة مُمهِّدة بوصف المكان الذي تدور فيه الأحداث، كما أنه لم يُلمّح عن السبب وراء عقوبة الرجل، بل إنه يركّز على موقفه هو من الحدث، فيسرد ما قدّمه من حِجَج أفضت إلى العفو عن الرجل وتوليته قضاء البصرة، وقد ركّز الراوي في سرده تركيزًا واضحًا بيَّن قدرته على الإقناع، ومن ذلك أنه استعطف الخليفة المنصور بذكر صِلة القرابة بينه وبين الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فلهذه الصِّلة أحرى أن تدفعه إلى الأخذ بكلام الرسول –صلى الله عليه وسلم– واتّباع سنته في الحثِّ على العفو. وإن كان الراوي لم يتخلَّ عن وظيفته السردية بكل جوانبها؛ فقد قدّم لسرده للحدث بتصوير الرجل المعاقَب ووضعه المهين أمام الجمع الحضور، مما أثار عطف البطل الراوي عليه، ومحاولته أن يجد له مخرجًا من محنته.

الوظيفة التفسيرية:

في هذه الوظيفة يتجاوز الراوي تقديم الحكاية إلى البحث عن حكاية الحكاية، عن أصل الحكاية، ومن ثَمَّ فإنه بالتعليل والشرح والتفسير تبرز الخصائص الذاتية لهذا الراوي، وتُرسم صورته[١٥].

(١٤) التذكرة الحمدونية، (٤/١٠٥)

(١٥) الراوي والنصّ القصصي (ص٦٢).

ومن أمثلة ذلك: وحدّثنا حمّاد بن سلمة(١٦) قال: "كان رجل في الجاهليّة معه محجة يتناول به متاع الحاجّ سرقةً، فإذا قيل له: سرقت! قال: لم أسرق، إنّما سرق محجني! قال: فقال حماد: لو كان هذا اليوم حيًّا، لكان من أصحاب أبي حنيفة!"(١٧).

علّق الراوي للخبر (حمّاد بن سلمة) على الخبر تعليقًا يعطي بُعدًا آخر للخبر غير طريقة الاحتجاج -الذي أورد الجاحظ الخبر ليبيّنها-، فحماد يرى أن هذه الطريقة في الاحتجاج تشبه طريقة أصحاب أبي حنيفة؛ ففي تعليق حمَّاد على الخبر، يفصح عن جانب من شخصيته، فقد يكون غير مُحب لطريقة أبي حنيفة في القياس(١٨).

ومن أمثلة ذلك أيضًا:

عن الأصمعي قال: "كان لأبي حنيفة جار بالكوفة يغني، فكان إذا انصرف وقد سكر يغني في غرفته، ويسمع أبو حنيفة غناءه فيعجبه، وكان كثيرًا ما يغني:

(أَضَاعُونِي وأيَّ فتًى أضاعُوا ... ليومِ كَرِيهةٍ وسِدَادِ ثَغْرِ)

فَلَقِيَهُ العَسَس ليلة فأخذوه وحُبس، ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة، فسأل عنه، فأُخبر فدعا بسواده وطويلته فلبسهما، وركب إلى عيسى بن موسى، فقال له: "إن لي جارًا أخذه عَسَسُك البارحة فحُبس، وما علمت منه إلا خيرًا" فقال عيسى: "سلموا إلى أبي حنيفة كل ما أخذه العَسَسُ البارحة فأُطلقوا جميعًا، فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة، وقال له سرًا: "ألست كنت تغني يا فتى كل ليلة:

(أضَاعُونِي وأيَّ فَتًى أَضَاعُوا ...)

فهل أضعناك؟" قال: لا والله أيها القاضي، ولكن أحسنت وتكرّمت، أحسن الله جزاءك قال: "فعُد إلى ما كنت تغنيه؛ فإني كنت آنس به، ولم أر به بأسًا"، قال: "أفعل"(١٩).

يقدّم الأصمعي راوي الخبر جانبًا من جوانب شخصية أبي حنيفة، ذلك العالم الفقيه صاحب المذهب، يقدمه الراوي تقديمًا يبيّن من خلال أحداث الخبر أنه يهتم بجيرانه كما أمر الرسول الكريم -صلى الله عليه

(١٦) هو حماد بن سلمة بن دينار البصري الرّبعي بالولاء، أبو سلمة (٠٠٠ – ١٦٧هـ = ٠٠٠ – ٧٨٤م): مفتي البصرة، وأحد رجال الحديث، ومن النحاة. كان حافظًا ثقة مأمونًا، إلّا أنه لما كبر ساء حفظه فتركه البخاريّ، وأما مسلم فاجتهد وأخذ من حديثه بعض ما سمع منه قبل تغيّره. ونقل الذهبي: كان حماد إمامًا في العربية، فقيهًا، فصيحًا، مُفوّهًا، شديدًا على المبتدعة، له تآليف. وقال ابن ناصر الدين: هو أول من صنّف التصانيف المرضية، الأعلام للزركلي، (٢/١٧٢).

(١٧) الجاحظ، (الحيوان)، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ، (٣/٨).

(١٨) وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيرًا من خصوم الإمام أبي حنيفة أخذوا عليه ذلك، لكنه وضّح منهجه في القياس، ويمكن أن يظهر من خلال هذه المقولة له: "وقال نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة؛ وذلك أننا ننظر في دليل المسألة من الكتاب والسُّنة أو أقضية الصحابة، فإن لم نجد دليلًا قِسنا –حينئذ– مسكوتًا عنه على منطوق به" أبو الحسن نور الدين الملا، شرح مسند أبي حنيفة، المحقّق: الشيخ خليل محيي الدين الميس، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، (ص٤).

(١٩) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار الفكر – بيروت، الطبعة: الثانية، تحقيق: سمير جابر، (١/٤٠٠).

وسلم-؛ فهو يتفقّد أحوالهم ويسأل عنهم إذا افتقدهم ويتدخّل ليحل لهم مشاكلهم، كما ربط الراوي بين شخصية أبي حنيفة وبين شخصيات القصة، وإن كان أبو حنيفة هنا هو أحد شخصيات القصة أيضًا، إلا أن هذا الربط بأن جعله جارًا لرجل يُتقن الغناء لا شك، يعطي بعدًا آخر للخبر، ربما أن أبا حنيفة لم يكن يمانع أن يكون له جار مُغَنٍّ، ولا يرى بأسًا في ذلك، حتى أنه توسط له ليخرجه من محبسه.

ومن أمثلة ذلك أيضًا:

"...كان ابن عمران بعد ذلك إذا ادّعى أحد عنده شهادة أبي سعيد(٢٠) صار إليه، إلى منزله أو مكانه من المسجد حتى يسمع منه، ويسأله عما يشهد به، فيخبره، وكان محمد بن عمران كثير اللحم عظيم البطن، كبير العجيزة، صغير القدمين، دقيق الساقين، يشتد عليه المشي، فكان كثيرًا ما يقول: لقد أتعبني هذا الصوت، لقد "طفت سبعًا" وأضرّ بي ضررًا طويلًا شديدًا، وأنا رجل ثقال بترددي إلى أبي سعيد لأسمع شهادته"(٢١).

فقد عمد الراوي في هذا الخبر إلى استخدام وظيفته التفسيرية، ففسر للمتلقي سبب معاناته من الذهاب إلى الشاهد عوضًا عن أن يأتيه الشاهد، وهذا التفسير جاء بوصف القاضي البدين، وهذا الوصف قدّم تفسيرًا فنيًّا، وأعطى لمخيلة المتلقّي ما يُكوِّن به صورة واضحة للقاضي وهو يمشي متثاقلًا متحاملًا على نفسه ليسمع من الشاهد.

الوظيفة الاستشهادية أو الوظيفة الأيديولوجية:

ويُطلِق عليها البعض الأيدلوجية أو الفكرية، لتوجّه الاهتمام بالآراء والأفكار التي يتبنّاها الراوي، وتكريسها لدى المتلقّي، ودفعه إلى تبيين هذه الأفكار، وفي الحدّ الأدنى ملامسة مضامينها المعرفية والوجدانية. وتظهر فيها نيّة السارد بتوجُّه المتلقّي إلى مسائل خلقية واجتماعية أو لغوية لها دلالتها الفكرية التي تدفع إلى التخلّي عن الشرور والتحلّي بقِيَم العلم والحضارة(٢٢).

وتختصّ بموقف الراوي من النصّ الذي يرويه، حيث يعبّر الراوي عن موقف فكري أو أخلاقي أو انفعالي، ويشهد على مصدر معلوماته أو دقّة ذكرياته أو المشاعر التي تُولّدها فيه بعض الحوادث المروية.

وقد يتدخّل الراوي بصورة مباشرة أو غير مباشرة للتعليق على مضمون الحكاية بأسلوب تعليمي.

وتتعلّق بالخطاب التنويري أو التربوي أو الأخلاقي أو المذهبي الذي يحمله الراوي في عباراته، وفي طريقة سرده للأحداث.

---

(٢٠) أبو سعيد مولى فائد وفائد مولى عمرو بن عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وذكر ابن خرداذبة أن اسم أبي سعيد إبراهيم، وهو يعرف في الشعراء بابن أبي سنة مولى بني أمية وفي المغنين بأبي سعيد مولى فائد، وكان شاعرا مجيدا ومغنيا وناسكا بعد ذلك فاضلا مقبول الشهادة بالمدينة معدلا، وعمَّر إلى خلافة الرشيد ولقيه إبراهيم بن المهدي وإسحاق الموصلي وذووهما. الأغاني، (٤/٣٢٤).

(٢١) ينظر الخبر كاملا في: الأغاني، (٤/٣٣١-٣٣٢).

(٢٢) البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، (٦٠).

ومن أمثلة ذلك:

يقول الأصفهاني تحت عنوان: (وصف صغار سادوا باستحقاق): "لما ولِيَ المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة، وكان من أبناء نيف وعشرين سنة، أراد بعض أهل البصرة أن يَعِيره بذلك ويضع منه، فقال: كم سنّ القاضي؟ فقال: سنّ عتاب بن أسيد حين ولّاه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مكّة، فجعل جوابه احتجاجًا"(٢٣).

فيستشهد بالخبر على أن السيادة ليست بالسنّ، لكن بحُسن الفهم وجيد الفطن، فهذا القاضي الصغير استحقّها بدليل سرعة بديهته في الردّ.

كما يستشهد على (استنكاف العرب من الهجنة) فيقول:

"صار أعرابي إلى سوّار القاضي، فقال: إن أبي مات وتركني وأخي، فخطَّ خطَّين ناحية، وترك هجينًا(٢٤) فخط آخر ناحية بعيدًا عن الأوَّلَين، فكيف يُقسّم المال؟ قال: المال بينكم أثلاثًا.

فقال الأعرابي: لا أحسبك فهمت، فأعاد عليه الفُتيا، فقال: المال بينكم سواء. فقال: أيأخذ الهجين كما نأخذ؟! قال سوار: نعم. فغضب الأعرابي، وقال: أعلم أنك قليل الحالات بالدّهناء(٢٥)، فقال: لا يضرّني"(٢٦).

فرفض الأعرابي حكم القاضي حين سوّاه وأخاه بأخيهم الهجين، بل واتّهمه بأنه لا يعرف مثل هذه الحالات التي تكون في الدهناء.

ويروي أبو بكر الخوارزمي هذا الخبر: "كانت امرأة بنيسابور، حملت زوجها إلى القاضي تدّعي عليه خمسمائة دينار، فأنكر الرجل، فاستدعى القاضي منها إحضار الشهود فأحضرتهم، فقالوا: حتى نكشف عن وجهها ثم نشهد، فهمَّت أن تسفر عن وجهها فصاح الرجل وأدركته الغيرة، وقال: أنتم تريدون أن تنظروا إلى وجه زوجتي، أيها القاضي أشهد أن لها عليَّ حقًّا واجبًا ستمائة دينار، فتعجَّب القاضي والحاضرون من حميته وغيرته.

فقالت المرأة: أيها القاضي أشهدك أنه بريء من حقي، وإنّي قد أحللته من ذلك، فتعجَّبوا غاية العجب، ثم قال القاضي: اكتبوه وضعوه في باب الفتوة"(٢٧).

وقد جاء الراوي بهذا الخبر مُعبّرًا عن رأيه في الفتوة والشهامة، وليضرب به المثل فيهما.

---

(٢٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم بن أبي الأرقم– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ، (٢٠٠/١).

(٢٤) هجين: قيل لولد العربي من غير العربية. تاج العروس، فصل الهاء مع النون، مادة هجن (٢٧٣/٣٦).

(٢٥) الدَّهنَاءُ: هي سبعة أجبل من الرمل. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م (٤٩٣/٢).

(٢٦) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ، (٤٢١/١).

(٢٧) أبو بكر الخوارزمي، مفيد العلوم ومبيد الهموم، المكتبة العنصرية، بيروت، ط. ١٤١٨هـ، (٣٥٨/١).

والتنوخي في كتابَيهِ (الفرج بعد الشدة) و(نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) يقدّم لنا خير تطبيق لوظيفة الراوي الاستشهادية والأيدولوجية، فهو يقدّم للمتلقّي القصص والأخبار التي تعينه على فهم أفكار المؤلّف، وتساعد المؤلّف في جلاء وجهة نظره، وتترك المتلقّي يستخرج ويستنتج المغزى من القصة أو الخبر، فتتوثّق لديه الفكرة، ويسهل عليه استدعاؤها حين الحاجة إليها، ويمكن تبيين ذلك من كلام التنوخي نفسه حين قال: إنّه ألّف هذا الكتاب، "ليستفيد منه العاقل اللبيب، والفَطِن الأريب، ويجد فيه ما يحثّه على العلم بالمعاش والمعاد، والمعرفة بعواقب الصلاح والفساد، وما تُفضي إليه أواخر الأمور، وتُساس به كافة الجمهور"(٢٨).

وكتابه الذي كان جزءًا من النشوار عبارة عن مجموعة من القصص التي تشتمل على أحاديث تتعلّق بمن ابتُليَ، ثم سرّى عنه، وضمّها إلى قصص أخرى نقلها من الكتب، فأخرجها كتابًا سمّاه (كتاب الفرج بعد الشدّة)(٢٩).

ومن أمثلة تلك الأخبار في الكتابَين ما يلي:

"أخبرنا التنوخي، قال: حدّثنا أحمد بن عبد الله الدوري، قال: أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري بالبصرة، قال: أخبرنا أبو زيد عمر ابن شبّة، قال: حكم ابن أبي ليلى بحكم، ونوح بن درّاج حاضر، فنبّهه نوح، فانتبه، ورجع عن حكمه ذاك. فقال ابن شبرمة:

كادت تزلّ به من حالق قدم ... لولا تداركها نوح بن درّاج

لما رأى هفوة القاضي أخرجها ... من معدن الحُكم نوحٌ أيّ إخراج

قال: إنّ الحاكم كان ابن شبرمة، لا ابن أبي ليلى، وإنّ رجلًا ادّعى قراحًا فيه نخل، فأتاه بشهود شهدوا له بذلك. فسألهم ابن شبرمة: كم في القراح نخلة؟ فقالوا: لا نعلم، فردّ شهادتهم. فقال له نوح: أنت تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة، ولا تعلم كم فيه أسطوانة. فقال للمدّعي: أردد عليّ شهودك، وقضى له بالقراح، وقال هذا الشعر"(٣٠).

فجاء التنوخي بهذا الخبر تحت عنوان: (كادت تزلّ به من حالق قدم): فالقاضي حكم حكمًا ظالمًا بناه على استنتاج خاطئ، فجاء نوح ابن دراج ونبّهه إلى موطن الخلل بطريقة على بساطتها صائبة، وجنّب القاضي الزلل.

---

(٢٨) التنوخي، نشوار المحاضرة، ١٣٩١هـ، المقدمة، (ص٦).

(٢٩) المصدر السابق، (ص١١).

(٣٠) نشوار المحاضرة وأخبار المذكرة، (٧/٣٣، ٣٤).

الوظيفة التنسيقية:

الراوي هنا هو مؤلّف الكتاب، ومن مهامه تنسيق مرويات الرّواة، وجعلها متماسكة حول شخصية البطل، فالراوي يبيّن من خلال تعليقاته على نصّ حكايته ما في هذا النص من علاقات ومفاصل وارتباطات، أي تنظيمه الداخلي(٣١).

ومن أمثلة ذلك:

"قال الحسن بن قحطبة: دخلت على المهديّ بعيساباذ، فدخل شريك القاضي فسلَّم، فقال المهدي: لا سلَّم الله عليك يا فاسق، فقال شريك: إن للفاسق علامات تُعرف: شرب الخمور واتّخاذ القينات والمعازف. قال: قتلني الله إن لم أقتلك. قال: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت في المنام كأني مُقبلٌ عليك أكلّمك وأنت تكلّمني من قفاك. فقال لي المعبّر: هذا رجل يطأ بساطك وهو مخالف لك. فقال شريك: إن رُؤياك ليست كرؤيا يوسف بن يعقوب، وإن دماء المسلمين لا تستحلّ بالأحلام. فنكس المهديّ رأسه ثم أشار إليه أن اخرج، فخرج وخرجتُ خلفه. فقال لي: ما رأيت ما أراد صاحبك أن يفعل؟ فقلت: اسكت، فلله أبوك!"(٣٢).

فالراوي هنا كان شاهدًا للحوار بين المهدي والقاضي، ناقلًا له، نقلًا يبيّن براعة القاضي في الردّ على المهدي، وبذلك خلّص نفسه من الموت المحقَّق، ويثبت الراوي الحوار بينه وبين القاضي الذي يسأله في تعجُّب عمَّا أراده المهدي، ويردّ الراوي بالتعجُّب والاستحسان لفعله، مما يزيد من تماسك ملامح شخصية القاضي داخل النصّ.

وقد ساق لنا الراوي الحوار بين البطلين دون أن يتدخّل في مجريات الحدث، مُكتفيًا بوظيفة السارد، وفي نهاية الحوار علّق على ما جرى، مُبيّنًا إعجابه بالقاضي وبراعته في التخلّص من هذا الموقف الجلل.

الوظيفة الانتباهية:

كما يُطلق عليها الوظيفة الإثارية، وهي "وظيفة من وظائف التواصل يتم فيها بناء وتوجيه أي فعل تواصلي (قولي)، وذلك حينما يتمحور الفعل التواصلي حول المرسل (وليس حول أي عنصر آخر من عناصر التواصل)، وهي فعلًا وظيفة إثارية أو مثيرة، وعلى وجه التحديد، فإن فصول السرد التي تبرز السارد يمكن أن يُقال إنها تؤدّي وظيفة إثارية"(٣٣).

---

(٣١) ينظر الراوي والنصّ القصصي، (ص٧٣).

(٣٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، (٧/٢١٥، ٢١٦).

(٣٣) جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، الأولى ٢٠٠٣، (ص٧٣).

وتبرز هذه الوظيفة جليّةً في معظم النصوص من خلال الحوار المتبادل بين المرسِل والمرسَل إليه، ونقل ردود الأفعال بين الطرفين، "كما أن حضور السؤال وطلب الجواب هو قضية مهمّة في التواصل. فكثيرًا ما نرى أثر التفاعل باديًا على الأفعال"(٣٤).

ومن أمثلة ذلك:

يروي الجاحظ هذا الخبر أيضًا تحت عنوان [تكلُّف بعض القُضاة في أحكامهم]:

"قال رجل لعبيد الله بن الحسن القاضي: إنّ أبي أوصى بثلث ماله في الحصون. قال: اذهب فاشترِ به خيلًا، فقال الرجل: إنّه إنّما ذكر الحصون! قال: أما سمعت قول الأسعر الجعفيّ: [من الكامل]

ولقد علمت على تجنّبي الرّدى ... أنّ الحصون الخيل لا مدر القرى

فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل، أنّه ما قيل للمدن والحصون حصون إلّا على التشبيه بالخيل.

وخبّرني النّوشروانيّ، فقال: قلتُ للحسن القاضي: أوصى جدّي بثلث ماله لأولاده، وأنا من أولاده. قال: ليس لك شيء. قلت: ولِمَ؟ قال: أوَما سمعت قول الشاعر: [من الطويل]

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهنّ أبناء الرّجال الأباعد"(٣٥)

وذلك ضمن طائفة من الأخبار مُتفرّقة المواضيع والعناوين، لا يجمعها سوى استنشاط ذهن القارئ.

ويروي الجاحظ هذا الخبر، فيقول: "[بين أبي علقمة المزني وسوّار بن عبد الله]

ولما شهد أبو علقمة المزنيّ عند سوّار بن عبد الله أو غيره من القُضاة وتوقّف في قبول شهادته، قال له أبو علقمة: لِمَ توقّفت في إجازة شهادتي؟ قال: بلغني أنّك تلعب بالكلاب والصّقور. قال: من خبّرك أنّي ألعب فقد أبطل، وإذا بلغك أنّي أصطاد بها فقد صدقك من أبلغك، وإنّي أخبرك أنّي جادٌّ في الاصطياد بها، غير لاعب ولا هازئ، فقد وقف المبلّغ على فرق ما بين الجدّ واللّعب. قال: ما وقف ولا وقّفته عليه. فأجاز شهادته"(٣٦).

فيأتي الجاحظ بهذا الخبر ضمن مجموعة من الأخبار متنوعة عن الكلب، ليدفع بها السأم ويجذب الانتباه.

وبعد هذه المحاولة للتحليق في أخبار القُضاة للكشف عن وظيفة الراوي فيها، تبيّنت عدّة ملاحظات واستنتاجات:

يُلاحَظ: تعدّد وظيفة الراوي للخبر الواحد، فقد يقوم بالوظيفة السردية والتفسيرية والاستشهادية والتواصلية، لكن قد تكون إحدى الوظائف أبرز من غيرها.

الراوي يسعى من خلال القيام بوظيفته إلى التأثير في المتلقّي وجذبه إليه.

---

(٣٤) المصدر السابق (ص٥٩).

(٣٥) الحيوان: ١/ ٢٣٠.

(٣٦) الحيوان: ٣/ ٣٥٠.

وإذا كان الراوي في المرويات الشفاهية، فإما أن يكون راويًا مُفارقًا لمرويه، يتدخّل دائمًا فيما يروي، وراوٍ متماهٍ بمرويه، يترك للمروي أن يروي دونما تدخّل مباشر فيه. فإن الشكل الأول كان هو السائد في المرويات السابقة.

ويُستنتج: أن الوظيفة السردية أو وظيفة الحكي تُعدّ الوظيفة الأولى للراوي، وأنه لا يوجد مروي لم يقُم الراوي فيه بهذه الوظيفة، لكنها في هذا الكتاب لم تكن مقصودة لذاتها، الراوي لم يكن يحكي لأجل الحكي فقط، بل كان يتّخذ من وظيفة الحكي والسرد وسيلة لهدف آخر، مثل ضرب المثل والاستشهاد، أو دفع الملل عن المتلقّي ليستمر في قراءة الكتاب إلى غير ذلك من الوظائف.

في كل المرويات كان لشخصية الراوي حضور كبير، فلم يكن مجرد ناقل للخبر، بل إن طريقة عرضه للخبر وتركيزه على جانب دون الآخر، كل ذلك كان نابعًا من ثقافة الراوي وملامح شخصيته، والهدف الأساس الذي جاء الخبر من أجله.

إن صور الراوي ووظائفه متعدّدة، وكذلك صور حضوره بوصفه أهم مكوّن من مكونات الخطاب والقصة، فهو الذي يُوصل القصة ويرتّب أفكارها، ويحدّد أسلوب عرضها، إضافةً إلى أنه يصنع الترابط الوثيق بين كل مكونات البنية السردية للحكاية، حتى إنه يتعانق مع المروي له بالمحاولة في التأثير فيه، ومع الحرص على تأدية لعبة الإيهام الحقيقي لما يرويه.

المبحث الثالث: أنواع الرُّواة

الراوي المؤلّف:

يمكن فهمه على أنه: الراوي الذي تطغى صورته على كل العالم القصصي الذي يرويه، ويعلو صوته على جميع الأصوات... لا نعلم إلا ما يعرفه عن الأفعال التي تقوم بها الشخصيات، هو فقط صاحب السلطة، ولا ينبغي لأحد أن يتفوّه بشيء من هذه المعلومات سواه، حتى الشخصيات نفسها، لا يُتاح لها ذلك. وهذا النوع من الرُّواة كانت له السيطرة والانتشار في الأدب العربي القديم، والأدب الشعبي[٣٧].

ومن أثر هذا الراوي على البنية السردية أن تسود القصة أو الخبر النظرة الأحادية للحدث، وتطغى التقارير السردية على الأساليب الحوارية.

من أمثلته:

"كان الجارود بن أبي سبرة، ويُكنى أبا نوفل[٣٨]، من أبين الناس وأحسنهم حديثًا، وكان راوية علامة، شاعرًا مُفلقًا، وكان من رجال الشيعة. ولما استنطقه الحجّاج، قال: "ما ظننت أن بالعراق مثل هذا. وكان

(٣٧) الراوي والنصّ القصصي، (ص٨٢).

(٣٨) جاء به الجاحظ كمثال للبلغاء والخطباء.

يقول: ما أمكنني والٍ قطّ من أذنه إلا غلبت عليه، ما خلا هذا اليهودي -يعني بلال بن أبي بردة- وكان عليه متحاملًا، فلما بلغه أنه دهق(٣٩) حتى دقّت ساقه، وجعل الوتر في خصييه، أنشأ يقول:

لقد قرّ عيني أن ساقيه دُقّتا ... وأن قُوى الأوتار في البيضة اليسرى

بخلت وراجعت الخيانة والخنا ... فيسّرك الله المقدّس للعسرى

فما جذع سوء خرّب السوس جوفه ... يعالجه النجار يبرى كما تبرى

وإنما ذكر الخصية اليسرى لأن العامة تقول: إن الولد منها يكون"(٤٠).

وقد قدّم رجل امرأة حسنة النقيبة إلى القاضي، فقال: "يعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوّجها ثم يسيء إليها. ففطن الرجل بحال القاضي، فعمد إلى نقابها فأسفره، فرأى القاضي وجهًا وَحْشًا فحكم عليها. وقال: قومي لعنك الله، كلام مظلوم ووجه ظالم، فقال زوجها: قومي إلى رحلك أم حاتم... قد كدتِ تسبّين فؤاد الحاكم بنطق مظلوم ووجه ظالم"(٤١).

"قال أبو الحسن المدائني: كان عبيد الله بن الحسن حيث وفد على المهدي مُعزّيًا ومُهنّئًا، أعدّ له كلامًا، فبلغه أن الناس قد أعجبهم كلامه، فقال لشبيب بن شيبة: إني والله ما ألتفت إلى هؤلاء، ولكن سَل لي عبيد الله الكاتب عنه. فسأله، فقال: ما أحسن ما تكلّم به! على أنه أخذ مواعظ الحسن، ورسائل غيلان(٤٢)، فلقح بينهما كلامًا. فأخبره بذلك شبيب، فقال عبيد الله: لا والله إن أخطأ حرفًا واحدًا"(٤٣).

"قال القاضي أبو عمر، وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى يوسف بن يعقوب -يعني أباه- في حكم، فجاء فارتفع في المجلس، وأمره الحاجب بموازاة خصمه، فلم يفعل إدلالًا بعِظَم محلّه من الدولة، فصاح القاضي عليه، وقال: قفاه، أتُؤمر بموازاة خصمك فتمتنع؟! يا غلام عمرو بن أبي عمرو النخاس لأتقدم إليه الساعة ببيع هذا العبد، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين. ثم قال لحاجبه: خُذ بيده، وسَوِّ بينه وبين خصمه، فأُخذ كرهًا وأُجلس مع خصمه.

---

(٣٩) دهق: الدَّهْقُ: شِدَّةُ الضَّغْط. والدهْق أَيْضًا: مُتابعة الشَّدِّ. ودَهَق الماءَ وأَدْهَقه: أَفْرَغه إِفْرَاغًا شَدِيدًا. لسان العرب مادة (د هـ ق).

(٤٠) البيان والتبيين، (١/٢٦٨).

(٤١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، (١/٢٥٢).

(٤٢) غَيْلان القَدَري (٠٠٠- بعد ١٠٥هـ = ٠٠٠- بعد ٧٢٣م). غيلان بن مسلم الدمشقيّ، أبو مروان: كاتب، من البلغاء: تُنسب إليه فرقة "الغيلانية" من القدرية. وهو ثاني من تكلَّم في القدر ودعا إليه، لم يسبقه سوى معبد الجهنيّ. قال الشهرستاني في الملل والنحل: "كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، وفي الإمامة إنها تصلح في غير قريش، وكل من كان قائمًا بالكتاب والسنة فهو مُستحقٌّ لها، ولا تثبت إلا بإجماع الأمة". ومن كلام غيلان: "لا تكُن كعلماء زمن الهرج إن وُعظوا أنفوا، وإن وَعظوا عنفوا". وله رسائل، قال ابن النديم: إنها في نحو ألفَي ورقة. واتُّهم بأنه كان في صباه من أتباع الحارث بن سعيد، المعروف بالكذاب. وقيل: تاب عن القول بالقدر، على يد عمر بن عبد العزيز، فلما مات عمر جاهر بمذهبه، فطلبه هشام بن عبد الملك، وأحضر الأوزاعي لمناظرته، فأفتى الأوزاعي بقتله، فصُلب على باب كيسان بدمشق. الأعلام للزركلي ١٢٤/٥.

(٤٣) البيان والتبيين، (١/٢٢٤).

فلما انقضى الحكم انصرف الخادم، فحدّث المعتضد بالحديث وبكى بين يديه، فصاح عليه المعتضد وقال: لو باعك لأجزت بيعه، وما رددتك إلى ملكي أبدًا، وليس خصوصيّتك بي تزيل مرتبة الحكم، فإنه عمود السلطان وقوام الأديان"(٤٤).

ومن أثر هذا الراوي على البنية السردية أن تسود القصة أو الخبر النظرة الأحادية للحدث، وتطغى التقارير السردية على الأساليب الحوارية. وكان هذا الأثر واضحًا في كثير من الأخبار السابقة

وهذا النوع من الرُّواة كان هو النوع الأكثر ظهورًا في الأخبار؛ وربما يعود ذلك إلى أن تلك الأخبار مأخوذة من كُتب لم يكن الهدف الرئيس لها سرد الأخبار، وإنما استعان بها مُؤلّفوها لضرب الأمثال، أو دفع الملل عن القارئ وحثّه على الاستمرار في القراءة.

الراوي الغائب:

هذا النوع من الرّواة لا يعرف المتلقّي عن ملامح شخصيته شيئًا، وما يدلّ على وجوده هو موقعه من الخبر ورؤيته له، ويمكن فهم ذلك من خلال المقارنة بينه وبين الراوي الظاهر المؤلّف؛ فبضدها تظهر الأشياء، "والفرق بين الراوي الظاهر والراوي المستتر أن الأول ذات وموقع ورؤية، وأن الثاني موقع ورؤية فقط، فنحن في ظل هذا الراوي المستتر لا نلمح ذات الراوي، وقد اختلفت تسميات النقاد لهذا النوع من الرّواة، فأطلقوا عليه حينًا (العاكس) وحينًا آخر (الكاميرا) وحينًا ثالثًا (المرآة)"(٤٥).

ومن أمثلته:

"يُروَى أن بلالًا وفد على عمر بن عبد العزيز بخناصرة، فسدك (أي لصق) بساريةٍ من المسجد، فجعل يصلّي إليها ويديم الصلاة، فقال عمر بن عبد العزيز للعلاء بن المغيرة بن البندار: إن يكن سرّ هذا كعلانيته، فهو رجل أهل العراق غير مدافع، فقال العلاء: أنا آتيك بخبره، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء، فقال: اشفع صلاتك، فإن لي إليك حاجةً، ففعل، فقال العلاء: قد عرفت حالي من أمير المؤمنين، فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي؟ قال: لك عمالتي سنة، وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم، قال: فاكتب لي بذلك، قال: فارقد بلال إلى منزله، فأتى بداوة وصحيفة فكتب له بذلك. فأتى العلاء عمر بالكتاب، فلما رآه، كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وكان والي الكوفة، أما بعد: فإن بلالًا غرّنا بالله، فكدنا نغترّ، فكسبناه فوجدناه خبثًا كلّه، والسلام"(٤٦).

---

(٤٤) التذكرة الحمدونية، (٣/١٨١).

(٤٥) انظر: الراوي والنصّ القصصي (ص٨٩).

(٤٦) المبرد، الكامل في اللغة والأدب. المحقّق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي– القاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (٢/٢٩١).

يُلاحَظ في الخبر السابق أن المبرد لم يذكر مَن الراوي، ولم ينسبه إلى نفسه، بل ترك المتلقّي يتعرّف على الخبر مباشرةً، لذلك قال: "ويُروى أن بلالًا وفد على عمر...". الفعل يُروى مبني للمجهول فالراوي غائب عن الخبر، ولا نعرف أي شيء عن ملامح شخصيته، لكن نعرف عنه أنه ذو رُؤية كلية للخبر، فهو محيط بما فعله بطل الخبر –وهو القاضي بلال- الذي كان على استعداد لدفع أموال في مقابل تزكيته عند الوالي ليتولّى القضاء.

وفي محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: "حكى عن أبي حنيفة –رحمه الله- قال: كنا نأتي حمادًا، فلا ننصرف عنه إلا بفائدة. فقال يومًا: إذا وَرَدَت على أحدكم مسألة مُعضلة، فليجعل جوابها منها، فما رأيت قوله شيئًا. حتى دخلت يومًا دار المنصور، فخرج الربيع وسألني ممتحنًا أفتني في رجل أمرني أمير المؤمنين بقتله، أعليّ في طاعته حرج، فذكرت قول حماد، فقلت: أليس يأمرك أمير المؤمنين بحقٍ رآه؟ قال: نعم. فقلت: افعل، فكل حقٍّ يأمرك به لا حرج عليك فيه"(٤٧).

هنا لم يذكر المؤلّف مَن الذي حكى عن أبي حنيفة هذا الخبر، واكتفى بقوله: "حُكِيَ"، ومن ثَمَّ فالراوي هنا غائب، وحرص الراوي الغائب على ظهور الشخصيات من خلال أفعالها، ومن خلال الحوار بينها، فيذكر استحضاره لقول حماد لينقذه من الفُتيا بعد أن كان لا يفهم ما المقصود من قوله.

الراوي الشاهد:

"غالبًا ما تظهر صورة هذا الراوي في السرد على استحياء، يعرف كل شيء، لكنه سلبي الموقف والإرادة، "هو مجرد ناقل للأحداث ومحلّل لها، يشبه العالم الموضوعي المتجرّد من العواطف والميول"(٤٨).

في هذه النوعية من الأخبار توجد إشارة إلى أن الراوي ينتمي إلى الخبر، لكن دون أن يشارك فيه أو يُظهر أثرًا له داخل الخبر، وتكون هذه الإشارة عن طريق وجود ضمير المتكلّم.

وتحت عنوان: (أبو عمر القاضي يعامل بالجميل رجلًا زوّر عنه رقعة بطلب التصرّف)، يقول التنوخي: "حدّثني أبو أحمد بن أبي الورد [شيخ من أبناء القُضاة لقيته سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ببغداد]، قال حدّثني أبي، وكان خصيصا بأبي عمر القاضي.

إنّ رجلًا زوّر عنه رقعة إلى أبي القاسم ابن الحواريّ، يسأله تصريفه، وكانت بينهما مودّة..."(٤٩).

فالراوي هنا كان قريب الصِّلة ببطل القصة، فهو راوٍ مشاهد.

(٤٧) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (٢٥٣/١).

(٤٨) الراوي والنصّ القصصي (ص١١٥).

(٤٩) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (٦٢/١).

الراوي المشارك:

"هو الراوي القريب من شخصيات الرواية، الممتزج بها زمانًا ومكانًا، فيصبح واحدًا منها، يشاركها في صناعة الأحداث، يصبح الزمان الذي يتحدّث فيه هو عين زمانه الذي تتحرّك خلاله الشخصيات(٥٠)، "وفي الوقت الذي يتولّى فيه الراوي فعل القصّ، فإنه يشارك الشخصيات في صناعة الأحداث، ويتزاحم معها في صراعها مع الزمان، أو يشهد هذا الصراع ويراه بعينه"(٥١).

فعندما يكون الراوي ممثلًا في الحكي -أي مشاركًا في الأحداث كمشاهد أو كبطل- "يمكن أن يتمثّل في سيرورة الأحداث بعض التعاليق أو التأملات تكون ظاهرة وملموسة إذا ما كان الراوي شاهدًا؛ لأنها تؤدّي إلى انقطاع في مسار السرد، وتكون مُعمَّرة ومُتداخلة مع السرد، بحيث يصعب تمييزها، وإذا كان الراوي بطلًا"(٥٢)، فتتراوح مشاركته بين البطولة والسيادة على الحدث.

ومعرفة الراوي المشارك تعتمد على "قياس المسافة التي تفصل بين الراوي والشخصيات، فإذا تضاءلت هذه المسافة أو تلاشت، كان الراوي مشاركًا، وإذا اتّسعت كان الراوي غير مشارك"(٥٣).

ومن أمثلته:

في كتاب أخبار الحمقى: "قال: حدث عبد الرحمن بن مسهر، قال: ولّاني القاضي أبو يوسف القضاء بجبل. وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة، فسألت أهل جبل أن يثنوا عليَّ، فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفرّقوا، فلما آيسوني من أنفسهم سرّحت لحيتي وخرجت فوقفت له، فوافى وأبو يوسف في الحراقة، فقلت: يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل، قد عدل بيننا وفعل وصنع، وجعلتُ أُثني على نفسي، فرآني أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك، فقال هارون: مِمَّ تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي. فضحك هارون حتى فحص برجليه، وقال: هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله، فعزلني"(٥٤).

يروي البطل ما حدث له من تزكيته لنفسه بطريقة مُضحكة، فكانت سببًا في عزله، وهو لا يتحرّج أن يروي ذلك عن نفسه، ولعله كان سعيدًا أن أضحك هارون الرشيد؛ فقد ذكر ذلك في روايته. فالراوي هنا يسرد الأحداث من وجهة نظره كراوٍ مؤلّف عليم بالأحداث.

ما جاء في جمع الجواهر: "قال إسحاق: حدّثني رجل من قريش، قال: قال لي محمد بن خالد القرشي: ذكرت لي جارية عند أبي فلان القاضي، فامضِ بنا إليه. قال: فصرنا إليه واستأذنّا، فإذا هو يصلّي، فلما

(٥٠) د. يمنى العيد: الراوي الموقع والشكل، (ص٦٩).

(٥١) انظر: الراوي والنصّ القصصي (ص١٢٠).

(٥٢) حميد الحمداني: بنية النصّ السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الأولى ١٩٩١م، (ص٤٩).

(٥٣) الراوي والنصّ القصصي (ص١١٩، ١٢٠).

(٥٤) أخبار الحمقى والمغفّلين (ص١٠٩).

فرغ من صلاته قال: لأمر ما جئتم؟ قلت: فلانة. قال لغلامه: يا غلام، عليَّ بفلانة لتخرج، فخرجت علينا جارية كأنها مها تتثنَّى في مشيتها، فلما قعدت وضع عود في حجرها، فجسّته واندفعت تغني: عوجي عليّ وسلّمي جبر ... كيف الوقوف وأنتم سفر

ما نلتقي إلا ثلاث منى ... حتى يفرّق بيننا النّفر

فقام القاضي على أربعة، قال: انحروني فإني بدنة، أهدوني فإني بدنة، والله لا أبيعها بمال يُكال، ولا بمال يُوزن، ولا بالخلافة، ولا بالدنيا، انصرفوا"(٥٥).

فراوي الخبر هو أحد الشخصيات، ويبيّن شغف القاضي بالجارية، وعدم استعداده لبيعها.

الخاتمة:

إذا أمعنَّا النظر في كيفية تناول الرّواة لشخصية القاضي، فسنجد أنهم -على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم واتجاهاتهم ومذاهبهم العقائدية والفكرية- اتّفقوا على أن القاضي بشر، مثله مثل بقيّة البشر، يُخطئ ويصيب، يعدل ويجور، يكذب ويصدق، قد يقدّم رشوة ليصل للمنصب، وقد يتنازل عن حقّه ليطيب خاطر شخصٍ آخر، فقد صوّروا لنا شخصية القاضي بكل جوانبها، بعيدًا عن الجانب النمطي الذي يستدعيه القاضي في ذهن المتلقّي من هالة الهيبة، ومظنّة العلم والذكاء والفقه والخبرة الطويلة في طبائع البشر.

أخبار القُضاة جاءت في ثنايا تلك الكتب، يرويها أصحابها للاستشهاد على صحّة نظرية، أو رأيٍ أوردوه أو لدفع الملل عن القارئ وحثّه على مواصلة القراءة، وخير دليل على ذلك ما ذكره الجاحظ تحت عنوان: [مقطّعات وخطب قصيرة]، الذي قال في تفسيره: "قد ذكرنا من كلام رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وخُطَبه صدرًا، وذكرنا من خُطَب السلف -رحمهم الله- جُملًا، وسنذكر من مقطّعات الكلام، وتجاوب البلغاء، ومواعظ النُّسَّاك، ونقصد من ذلك إلى القصار دون الطوال، ليكون ذلك أخفّ على القارئ، وأبعد من السآمة والملل. ثم نعود بعد ذلك إلى الخُطَب المنسوبة إلى أهلها إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله"(٥٦).

وقد استطاع الأدباء في العصر العباسي أن يستوعبوا بأدبهم النظرية السردية الحديثة؛ فقد ظهر الراوي -وهو أحد أهم عناصر السرد- في أدبهم بكل أنواعه، وتحقّقت في مرويّاتهم أهم وظائف الراوي السردية.

---

(٥٥) أبو إسحاق الحصري، جمع الجواهر (ص١٣).

(٥٦) البيان والتبيين، (٤٣/٢).

المصادر والمراجع:

إبراهيم ميساء سليمان، البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، ط. وزارة الثقافة دمشق، ٢٠١١.

إبراهيم، عبد الله، السردية العربية في المروث، الطبعة الأولى ١٩٩٢.

ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفَّى: ٥٦٢هـ): التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفَّى: ٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة: المحقّق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

ابن منظور، حمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفَّى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر- بيروت.

أبو إسحاق الحصري إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، (المتوفَّى: ٤٥٣هـ)، جمع الجواهر.

أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري علي بن (سلطان) محمد (المتوفَّى: ١٠١٤هـ)، شرح مسند أبي حنيفة، المحقّق: الشيخ خليل محيي الدين الميس، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

أبو بكر الخوارزمي محمد بن العباس (المتوفَّى: ٣٨٣هـ)، مفيد العلوم ومبيد الهموم، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، ط. ١٤١٨هـ.

أبو حبيب سعدي: القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة: الثانية ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

أبو عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني (المتوفَّى: ٢٠٦هـ)، معجم الجيم، المحقّق: إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

التنوخي البصري المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود، أبو علي (المتوفَّى: ٣٨٤هـ)، نشوار المحاضرة، عام النشر: ١٣٩١هـ.

الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، (المتوفَّى: ٢٥٥هـ) ١-البيان والتبيين، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢-الحيوان، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفَّى: ٥٩٧هـ)، أخبار الحمقى والمغفلين، شرحه: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، ط. المجلس الأعلى للثقافة، مصر، الأولى ٢٠٠٣.

حميد لحمداني: بنية النصّ السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفَّى: ٥٠٢هـ) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض (المتوفَّى: ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس: دار الهداية.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (المتوفَّى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر– أيار/مايو ٢٠٠٢ الأعلام. الطبعة: الثالثة– ١٤١٤هـ.

عبد الرحيم الكردي: الراوي والنصّ القصصي، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر ١٩٩٦م.

العيد يمنى: الراوي الموقع والشكل، مؤسّسة الأبحاث العربية، بيروت، ط. الأولى: ١٩٨٦.

الفاروقي الحنفي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النصّ الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م.

المبرد حمد بن يزيد، أبو العباس (المتوفَّى: ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، المحقّق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات. دار الفارابي لبنان، ط. الأولى، ٢٠١٠.

مرتضى، الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض (المتوفَّى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس.

المعجم الوسيط، الناشر: دار الفكر اللبناني، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (المتوفَّى: ٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.